الشاعر السامي

رثاء الشاعر المطبوع الدكتور احمد زكي ابو شادي لامام المجددين خليل مطران بك ألقيت في حفلة تأبينه بنيويورك يوم ١٠ أغسطس ١٩٤٩

إلهةَ الشعر! عادَ الشاعرُ السامي ... إلى عوالمَ لم تُحْسَرْ بأجرامِ
إلى عوالمَ غنّاها وأسكرَها ... كأنَّ أضواءَها أسداءُ أنغامِ
إلى نُهىً لم تُكيَّفْ في منازلها ... ولم تُحدَّدْ بأنفاسٍ وأجسامِ
إلى مَنابعَ للإلهامِ صافيةٍ ... فاضتْ على الشمسِ والدنيا بأقسامِ
الأنبياءُ الى عَلياهُا انتسبوا ... والشاعريةُ في وحْيٍ وإلهامِ
الى تَباركَ، فاستعلتْ كواكبُه ... ونحن في وَهْدَةٍ هانتْ وإظلامِ
تدورُ لا مُلْهِمٌ يُمْلي مسارَها ... ونحن ما بين إسراجٍ وإلجامِ
وتبعثُ الشعرَ في خَفْقٍ أشعتُها ... جَمَّ الفصاحةِ إنْ يُوصفْ بإبهامِ!

* * *

إلهةَ الشعرا... عادَ الشاعرُ السامي ... إلى عوالمَ لم تُحْسَرْ بأجرامِ

لم ينزع الموتُ إكليلاً خصصتَ به ... ذاكَ الجبينَ ، ولم يَظفرْ بإغمامِ
وإنْ يكنْ قد أثارَ الهولَ في لُهجٍ ... وبَشَّرَ الزُّهرَ منْ باكٍ ومنْ دامِ
أسْرِي به في بُروجٍ لا كواكبُها ... تَدري مَداها، ولا أربابُ أحلامِ
وخلَّفَ القنَّ مكبوتاً على وجلٍ ... ألمْ يُروِّعْ بفقد الكوكب (الرامي)؟
طارَ النَّعيُّ ، وبثَّ الطيرُ روَّعنا ... وهو الجريحُ بأحزاني وآلامي
ألقى علينا الأسى نُكلاً ومَسْغبةً ... سُدَّاً ذُخرَ آمالي وأحلامي
زادَ الهجيرَ لهيباً فرْطُ حُرْقَتِنا ... أليس حُرْقَتُنا أنفاسَ أيتامِ؟
كأنما لم يَمُتْ قبلاً بعلَّتِهِ ... الفاتحونَ لدولاتٍ وأنهامِ
كأنما عيشُه حامٍ لِتِكْرَتِهِمْ ... والفكرُ ليس له كالفكرِ من حامِ
ما أفدحَ الخطْبَ للعاينَ مانعموا ... فكلُّ جُرْحٍ حديدٍ غيرُ مُلْتامِ
وما أشقَّ المآسي للشعوب متى ... تُدوولَتْ بين إحياءٍ وإعدامِ!

* * *

هلْ يعلمُ الناسُ أيَّ الناسِ قد فقدُوا ... أمْ لا يزالون في نَوْمٍ وأوْهامِ؟
وهل بكت (ردى) والنيلُ واضطربا ... (كالأرزِ) من نوْحِ أعلامٍ وأعلامِ؟
أصالةٌ من جلالٍ ليس يرفعُه ... عالٍ من المدْحِ أو دانٍ من الذامِ
مَنْ سايرَ النهضةَ الكبرى وهذَّبها ... بالفنِّ والرأيِ أعداماً بأعوامِ؟
وما تَرَدَّدَ في تكييفِ مَبْدئِهِ ... ولا تَذَبْذَبَ في نقضٍ وإبرامِ
ولا تَلَعْثَمَ يوماً في رسالتِهِ ... ولا تَعَثَّرَ في تحطيمِ أصنامِ

كأنما رُشدهُ الصَّمصامُ في قَرَنٍ ... وشعرُهُ بُردهُ فأفاه وتمتامِ

أجزتْ شجاعته الأحرارَ عن خدعٍ ... في عالمٍ زاخرٍ بالشُّوم لوَّامِ

وفاضَ شُؤبوبُ رِيِّ المنعشقوا ... أنفاسَ (طيبةَ) أو ألحاظَ آرامِ

وأشرفتْ (حلبٌ) من خرائبها ... عرائسَ المجدِ في (لُبنانَ) و(الشامِ)

ألبستها حُلاً ما نالَ مُشرِفها ... أمراسُ (كسرى) ولا أفراحُ (بهرامِ)

ما (البحتريُّ) من الإيوان موقفُه ... وأنتَ في (حلبٍ) العابدُ السامي؟

مَنازلٌ لك لم يَنزلْ بساحتها ... إلاَّ النبوغُ، فما هانتْ لأقوامِ

شعرٌ تَشرَّبه الأرواحَ صافيةً ... وتستقلُّ به، لا نظمُ نظَّامِ

وشاعرٌ لم يُمهِّدْ قبله سبُلاً ... مثلَ (المسيحِ) أتى من بعدِ إظلامِ

جمُّ المروءةِ، وافي الخُلقِ، ذمَّته ... ليستْ مطيةَ أحبابٍ وأخصامِ

يغدو إليه ذوو الحاجاتِ في لهفٍ ... ويَفتنون وكلٌّ جدُّ مبسامِ

وما تعاظمَ يوماً في تفوُّقه ... بل في تواضعه آياتُ إعظامِ

كانت زمامته رُكناً يلاذُ به ... دونَ ادِّعاءِ الأحرارِ وأحرامِ

كالنُّورِ ليس لأرضٍ أن تخصَّ به ... ولن يُقاسَ بأبعادٍ وأرقامِ

قد ضنَّ بالفنِّ إلاَّ للبصير به ... كالكنزِ خبَّأ في حرزٍ بأحتامِ

وصانَ تفكيره عن عرضٍ مبتذَلٍ ... كأنما هو حصنٌ بين آطامِ

والفكرُ كالدِّينِ شيءٌ في قداسته ... لا كالخرائبِ والأطلالِ يكنُفها

ضبْحُ الفناءِ وتخذي الآرامِ

---

(١) الآرام: الظباء يشبه بها

ما عزَّتْ أمةٌ أودتْ بعزَّته ولا اغتدتْ دونه في عدِّ آنامِ
إذا تهاونَ شعبٌ في كرامته عزَّ الأديم عليه عند أدَّامِ
وإنْ أُصيبَ الى الآسي يعالجهُ لم يرأمِ الجرحُ أو يُنقَذ بإرآمِ (١)
ما حاربتْ أمة أخيارها ونجت أو أودعتْ أمرها أوهامَ رجَّامِ
هذا هو الخالدُ الموهوبُ أرفعه عن أن يشيرَ اليه أيُّ إبهامِ!

***

قنعتُ بالحظِّ في النجوى ، ومرتقبي نُعمَى حنانكَ في عودي وإكرامي
يا من أُباخ له قلبي فهذَّبني طفلاً وكهلاً ، وأحيا كلَّ أيامي
يا مَنْ سكنتُ اليه العمرَ ملتجأً ضافي العزاء ، فلم أعبأ بأخصامي
صحبته في خيالاتي ، وفي مُثُلي وفي حياتي ، وفي سعيي وإقدامي
ولم يزلْ ... ما لهذا الموت يعصفُ بي كما يعثرُ تأويلي وأحكامي ؟
وما لبرهةِ عامٍ كنتُ أرقبها حالتْ أبوداً وردَّتني لإحرامي ؟
أوَّل به ساعةً تنكيسَ أرؤسنا حزناً عليه ، وتنكيسُ لأعلامِ
لا أن تخشَّعنَ للطاغوتِ صاغرةً أو أن تطأطئَ في بؤسٍ وإعدامِ
لئن تجردَ عن ألقابِ مملكةٍ زانتْ جباناً وما كانت لمقدامِ
فالذئب يمرح في ثوبِ لبيدَه وما يُبدِّل غُفْلاً ثوبُ ضرغامِ!

***

(١) الإرآم : معالجة الجرح .

لم يبقَ لي من عزاء غيرُ ما وهبتْ ... هنالكَ للخلدِ من آياتِ رسّامِ
دسْ مزاميرَ جلّتْ في ترسّلها ... وفي تسلسُلها عن أيِّ إدغامِ
ورمزْ تسابيحَ سطرانٍ أردّدُها ... كأنما هي من أركان إسلامي
ومن أغاريدَ للعشّاقِ أرشفُها ... راحَ الشبابِ فأنسى جدبَ أيامي
ما الراحُ في الخيلِ سوطاً بها أدبي ... أرضى بجاماتها عن هذه الجامِ
ومن أهازيجَ في معنىً وفي صورٍ ... هي (الطبيعة) في روحي وإلهامي
ومن عظاتٍ وأمثالٍ وفلسفةٍ ... جاءتْ أثاجيلَ فوق المدحِ والقامِ
ومنْ تهاويزَ للتاريخ تسردها ... تلاعبُ الدهرِ أحقاباً بأيامِ
ومن صنائعَ للمعروفِ سابغةٍ ... ساوتْ بيرَ لخدومٍ وخدّامِ
ومن أحاديثَ مجّ الشهدَ مُبدعها ... وإن توارتْ بأزهارٍ وأكمامِ
ثمّ عن عبقريِّ الفنِّ معجزةٌ ... والفنّ كالحبِّ يحيا جدَّ غمّامِ
ولا أنيسَ سوى الذكرى لصحبتنا ... وكم تثورُ على يأسي وإحجامي!

***

رحلتَ في زمنٍ عزّ الحكيمُ به ... والسائسِ الحرِّ بلّهَ الشاعرِ الساعي
عن أمةٍ حظُّها الشكوى بلا خطرٍ ... فما تثورُ على أسواطِ ظلامِ
يخشى أفاضلُها الأوغادَ إن سمحوا ... ويركعون لأغرارٍ وأوغامِ
ويسخطون على مثلي ليقظتهِ ... إذ يمدحون، ويبكي الشانئ الذامي!
لا يستقرُّون من روعٍ ومن قلقٍ ... ولا يُلبّسونَ حتى عزمَ همّامِ

إذا أردنا لها استقلالها نفرتْ وما كرامةُ ذي عَوزٍ لقوّامِ؟
كأنما نسيتْ تاريخَ عزّتها ولم تُسطّرْ بأهرامٍ وأهرامِ!
قالوا: قطيع من الأغنامِ يُشبهها يا ليتها كقطيع بين أغنامِ!
يصطادُ أرزاقها من لا أكيّفهمْ وتستباحُ ركوبًا عند إجرامِ
ولا يقوّمها نصحٌ، ولا عبرٌ ولا سَدادٌ، وتهوى لهوَ هدّامِ
كم خودعت وصروفُ الدهر ضاحكةٌ تخلّطتْ بين أحبابٍ وأخصامِ
ما بارمُ الجبل في أعوادِ مَشنقةٍ كرائع لبنودِ النصر بوّامِ
فأثخنتها جراحاتٌ بلا عددٍ وأسلمتها لزلاّتٍ وأسقامِ
وما ينال وفيٌّ حين يرشدُها إلاّ العقابَ وإلاّ وطءَ أقدامِ
الهزلُ ما زالَ بين أسّسي شعائرها والجهل معبودَها في ملكه النامي
أحرارها غرباءٌ لا تميّزهم في حين تعنو لأوشابٍ وأعجامِ
لم تتّعظْ وصروفُ الدهر تلطمُها ولم تزلْ رهنَ أنصابٍ وأزلامِ
وتقتلُ الوقت إسفافًا ومَنقصةً وثأرُها عند بطريقٍ وحاخامِ
ولم أزلْ وأنا العاني بخدمتها شبيهها في ضلالاتي وإيهامي
أحنو عليها وإن جارتْ على أدبي وعاقبتني على بِرّي وإنعامي
وطاردتني إلى منفايَ جانيةً وعدّدتْ سَقطَ آثاري كأتامِ!

***

مَنْ لي بقربكَ حيًّا ذائدًا يقظًا عنّي، وحارسَ وجداني وأقلامي
يؤرّخُ الأدبَ العالي بسيرتهِ وباسمهِ يهتفُ الوافي بأقسامِ؟

ليبكِ من صفوة الأحرار من عرفوا ... من أنت واغترفوا من بحرك الطامي
ومن أبوا أن يُسدُّوا في محبتهم ... بين المقالين ، لو قيسوا بمستامِ
ومن يُسفدُّون أوطاناً نفخت بهم ... روحَ الإباء فلم تُذعن لهوّامِ
إن كانت اليومَ نهباً بعد تضحيةٍ ... فلن تُسام دواماً سوءَ أنعامِ!

* * *

عسى الرياض التي ناجيتها شغفاً ... تبوحُ بالوجْي للساعي والظامي
عسى الرياحَ التي شاقتك ثائرةً ... تلكَ هنيَ أغلالي وإرغامي
عسى الهديرَ على الأمواج ينفحنا ... بلحنك الحرِّ لم يُقهرْ بإعدامِ
عسى ترانيمَ هذا الطلِّ تمنحنا ... فرائداً منكَ في شؤبوبه الهامي
عسى الماءَ الذي غنّيته صُوراً ... من الجمال يُغذّي حُلوَ أنغامي
عسى الجداولَ في أبهى وداعتها ... تسيلُ منك حناناً حولَ آكامِ
عسى المروج وراعي النحل يلثمها ... ترفٌ بالشهدِ عطفاً بعد إجهامِ
عسى (الطبيعة) في أسنى مفاتنها ... تجودُ لي بسناء منكَ بسّامِ!
أنّى تأمّلتُ في حُسنٍ أهيمُ به ... رأيتُ لُطفكَ في ذهني وتهيامي
في نشقة العطر ، أو في النور مختلجاً ... في ثورة البحر ، أو في روْع آجامِ
وفي مشاهدَ لا تحصى دقائقها ... أنتَ وغنّيتَ على مزمارِ غنّامِ
ورنحت كلَّ عُنْبٍ في تصرُّفهِ ... كأننا أهلُ أشواقٍ وأرحامِ
أزجي رثائي صلاةً أنت مُلهمُها ... وإنْ تكنْ من حنايا قلبيَ الدامي!

أحمد زكي أبو شادي